

البدايات المبكرة للعمائر الدينية والتعليمية بالعالم الإسلامي والجزائر الزوايا والمدارس

أتموذج

The early beginnings of religious educational buildings in the Islamic world and Algeria: zawiyas and schools as a model

جامعة تلمسان/ الجزائر.	علم الآثار.	د. إبراهيم مجاهدي* Dr. Brahim Medjahdi brahim.medjahdi@univ-tlemcen.dz
------------------------	-------------	--

الإرسال: 2025/07/09 القبول: 2025/08/02 النشر: 2025/10/31

ملخص:

لا يختلف اثنان في أن الزوايا والمدارس، بصفتها منشآت معمارية ذات طابع وصبغة تعليمية ودينية في آن واحد، قد أدت دوراً بارزاً ومشرقاً في نشر العلم والمعرفة عبر مختلف جهات العالم الإسلامي عامة، والمغرب الأوسط والجزائر خاصة. فقد كانت هذه العمائر الدينية مراكز للتلقين والتربية الروحية، وأماكن لتكوين العلماء وحفظ القرآن، وفضاءات لإشعاع الثقافة الإسلامية في المجتمع. وتشهد المصادر الأدبية والتاريخية والجغرافية، على امتداد الفترات الإسلامية، على الكثرة اللافتة لهذه المنشآت التي لعبت دور الوسيط بين الدولة والمجتمع، وبين الدين والثقافة. كما تعزز ذلك البقايا المادية المنتشرة في العديد من التجمعات السكنية الحضرية والريفية، والتي تكشف عن تنوع أنماطها المعمارية ووظائفها. ومن خلال دراسة هذه العمائر يمكن الوقوف على مكانة الزوايا والمدارس في البناء الحضاري والثقافي للعالم الإسلامي، وفهم آليات استمراريتها وأثرها في تشكيل الهوية الفكرية والدينية للجزائر خاصة.

كلمات مفتاحية: الزوايا؛ المدارس؛ المنشآت الدينية؛ العالم الإسلامي؛ المغرب الأوسط.

Abstract:

There is no doubt that zawiyas and madrasas, as architectural institutions with both educational and religious functions, played a remarkable role in the dissemination of knowledge and learning throughout the Islamic world in general, and particularly in the Central Maghreb and Algeria. These religious establishments served as centers for teaching and spiritual formation, places for the training of scholars and Qur'an memorizers, and as spaces for the diffusion of Islamic culture within society. Historical, geographical, and literary sources across the different Islamic periods consistently attest to the abundance and significance of these institutions, which often acted as mediators between the state and society, and between religion and culture. This historical testimony is further confirmed by the material remains still visible in many urban and rural settlements, reflecting the architectural diversity and functional richness of these buildings. Studying these institutions offers valuable insights into their role in shaping the cultural and intellectual identity of Algeria within the broader Islamic world.

Keywords: zawiyas; schools; religious facilities; Islamic world; Central Maghreb.

* الباحث المُرسل: brahim.medjahdi@univ-tlemcen.dz

1. مقدمة:

تندرج دراستنا إلى حقل الدراسات التاريخية الأثرية، إذ يهدف أصلا إلى وضع تصور تأسيلي وتوثيقي يهتم بظاهرة بناء وانتشار وتطور كل من الزوايا والمدارس والتي لا شك في أنها كانت ولا تزال من أهم المنشآت المتعلقة بنشر العلم بمختلف أصنافه، لذلك كان لا بد من الاهتمام بها، ولعلّ مظاهر هذا الاهتمام تبدو جلية من خلال عدد الزوايا والمدارس التي أنشأت خلال العهد العثماني.

تعتبر المدارس جهازا معماريا يهتم أساسا بالتدريس وتلقين العلوم وإن اختلف عن الزوايا ببعض الفروقات المعمارية، إلا أن أغلب هذه المدارس في الجزائر اقتربت تصميمها الأساسي منذ نشأتها إلى أواسط عهد الاحتلال الفرنسي من التخطيط القائم أصلا على صحن تنفتح عليه غرف معدة إما للتدريس وإما لإيواء الطلبة وأيضا مصلى وميضاة وقد يكون بها مئذنة ولا نجزم وجود أضرحة أو قبور بها قبل وفاة مؤسسها المدرسين بها عكس الزوايا التي قد تُنشأ على أو قرب ضريح ولي صالح.

تعتبر الزوايا ثاني المعمار الديني انتشارا في العالم الاسلامي، وإن اختلفت أسماءها شرقا وغربا وشمالا ما بين الزوايا والخنقوات والتكايا، وإن تعددت أيضا ظروف إنشائها ووظيفتها الحقيقية، إلا أن كل هذا لم يمنع من تقاطعها في توزيع وحداتها المعمارية من جهة واشتراكها في بساطة عمارتها أحيانا وفي ثرائها الفني والإنشائي أحيانا أخرى، أما في العهد العثماني وبالغرب الجزائري بالضبط فقد انتشرت هذه المؤسسات انتشارا رهيبا في الأرياف والمدن، وإن كانت هذه الأخيرة أقل حظا من الأولى في تواجدها وهذا راجع لعدة أسباب لعل أبرزها رغبة مؤسسي هذه الزوايا في الانعزال والاختلاء بعيدا عن ضجيج المدن من جهة، وأيضا لرغبة بايات الغرب الجزائري في إبعاد هذه المؤسسات عن مركز الحكم لكثرة مريديها وأتباعها وما قد تشكله من خطر في حالة النزاعات أو الانتفاضات ضدهم، وهذا كله رغم ما نلاحظه من تشجيع من طرف الحكام الأتراك لمثل هذه النشاطات الروحية والدينية والمساهمة في بناء هذه المؤسسات.

تتولّى هذه الدّراسة البحث في نشأة هذه العمائر الدّينية بداية من أول ظهور لها بالعالم الإسلامي وإلى غاية وصولها للجزائر وانتشارها، حيث يدور فلك بحثنا حول إيجاد ترتيب كرونولوجي وتاريخي عام وشامل لهذه المنشآت المعمارية التي كانت ولا زالت من أهم المباني الإسلامية قداسة وروحية.

تكمن أهميّة هذه الدّراسة بالمقام الأول في كونها تلقي الضّوء على جانب معماري مهمّ يتمثّل في عمارة الزوايا والمدارس وانتشارها عبر مختلف ربوع العالم الإسلامي أوّلا قبل وصولها للجزائر.

يهدف هذا البحث إلى تسليط الضّوء على فكرة عنوان الموضوع والمتمثّل أساسا في إثبات أنّ ظاهرة بناء المدارس والزوايا ظلّت متواصلة ومستمرة منذ أول بروز لها إلى فترات متأخرة.

مقابل كلّ ما ذكر سابقا، كان ولا بدّ لنا من تسليط الضّوء على ظاهرة بناء وانتشار المدارس والزوايا في العالم الإسلامي، وإسقاط حيثيات هذا الأمر على توسع دائرتها منذ بداياتها المبكرة لتصل إلى الجزائر، من هنا أتت هذه الأطروحة لتميط اللّثام عن هذه المسألة المعمارية الأثرية، وتجيب على إشكالية رئيسية مفادها :

ما المدارس والزوايا التي وُجدت منذ الوهلة الأولى لبروز الإسلام قبل وصولها للمغرب الأوسط وانتشارها به ؟

2. الزوايا والأربطة:

إن انتشار الطريقة يقتضي تأسيس مواقع مميزة كاستراتيجية لتمكين أولو العزم من دعائها إلى التعريف بها، ولهذا الغرض ومن أجل التعاون الاجتماعي صار من الضروري إنشاء مراكز متخصصة لبلوغ هذا المرام تسمى زوايا جمع زاوية (بحيدي ومحمد، 2000، ص04)، فقد ارتبطت هذه الأخيرة ارتباطا وثيقا بغيرها من المنشآت الدّينية كالمساجد والأضرحة والأربطة.

1.1. الضبط اللغوي:

جاءت مفردة الزّاوية من مادة انزوى آخذة معنى العزلة والانزواء إذ قال عنها ابن منظور: "زاوية جمعها زوايا مأخوذة من فعل زوى وانزوى بمعنى ابتعد وانعزل،

وسمیت بذلك لأن الذين فكروا في بنائها أول مرة من المتصوفة والمرابطين، اختاروا الانزواء بمكانها والابتعاد عن صخب العمران وضجيجيه وبحثا عن الهدوء والسكون" (بحيدي ومحمد، 2000، ص 04)، وإلى نفس المعنى ذهب كل من الرازي والزمخشري (الرازي، 1992، ص 18)، بينما جاء في تاج العروس بأنها جمع زوايا فنقول تزوى الرجل إذا صار فيها، وفي نفس السياق يضيف الأستاذ بن لباد الغالي قائلا: "هذه الحال أو الصفة أطلقت على الإنسان الذي اعتزل الناس وركن في مكان قصد التعبد وأداء وظائف أخرى، فنسب إليه الانزواء، وإذا نظرنا في التصوف فإننا نجد فيه الانعزال والانزواء." (الغالي، 2009، ص 29)

الملاحظ في هذه التعريفات اللغوية الواردة هو مدى اتفاقها على أنّ فعل المصدر لمصطلح الزاوية هو انزوى من الانزواء ويأخذ معنى الانطواء والانعزال والبعد عن حياة العامة، وفي اعتقادنا فإنّ هذا هو ما يفسّر تواجد الكثير من الزوايا في الأرياف والبوادي والجهات المهجورة معماریا.

أما الرباط فيجمع على ربط وأربطة ورباطات، إذ استشهد الكثير على مشروعيته من قوله تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ" (سورة آل عمران، الآية 200)، فلا شكّ في أنّ المرباط هو الزاهد والعابد، بينما فسّرت الآية الكريمة: "وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَّا اسْتَطَعْتُمْ مِّن قُوَّةٍ وَمِنْ رِّبَاطِ الْخَيْلِ..." (سورة الأنفال، الآية 60) عند صاحب روح المعاني بأنّ: "أصل الرباط من ربط وربطا ورباطا ورباط مرابطة بمعنى حماية الثغور والمجاهدة في سبيل الله". (الألوسي، 1985، ص 26)

2.2. التعريف الاصطلاحي:

وردت عدة تعريفات للزوايا إذ يراد بها مأوى المتصوفين والفقراء فالزواوية مؤسسة دينية إسلامية ذات طبيعة اجتماعية روحية (نسيب، 2010، ص 27)، غالبا ما ترتبط الزوايا بإحدى الطرق الصوفية، ولعلّ أشمل تعريف للزاوية بشمال إفريقيا هو ما ذكره الأستاذ عبد العزيز مصباحي في أطروحته قائلا: "...إنّ مصطلح الزاوية يطلق في شمال إفريقيا على بناء أو مجموعة من الأبنية ذات طابع ديني،

وهي تشبه المدرسة، تحتوي على غرفة للصلاة بها محراب وضريح لأحد المرابطين أوولي من الأشراف تعلوه قبة، وغرفة اقتصرت على تلاوة القرآن الكريم ومكتب أو مدرسة لتحفيظ القرآن الكريم، ثم غرفة مخصصة لضيوف الزاوية والحجاج والمسافرين والطلبة، ثم عرفت الزاوية بعد ذلك بأنها مؤسسة لشيخ الطّرقية الصوفية، يجتمع فيها مريدوهم لذكر الأوراد واستقبال الزوار الذين يريدون الاستفتاء أو الإصلاح بين المتخاصمين" (مصباحي، 2012، ص21)، وعُرفت الزاوية في المشرق باسم الخنقوات حيث كانت مخصصة لإقامة المنقطعين للعبادة والمتصوفين، وأطلق عليها في العهد العثماني اسم التكايا جمع تكية

قسّم الباحث محمد حجي الزوايا إلى قسمين حين قال: "لم تظهر الزاوية في تاريخ المسلمين كمركز ديني وعلوي إلا بعد الرباط، والرابطة لغة مصدر رباط يربط بمعنى أقام ولازم المكان، ويطلق في اصطلاح الفقهاء والصوفية على شينين: أولهما البقعة التي يجتمع فيها المجاهدون لحراسة البلاد ورد هجوم العدو، والثاني عبارة عن المكان الذي يلتقي فيه صالحوا المؤمنين لعبادة الله وذكره والتفقه في أمور الدين". (حجي، 1988، ص81)

المطلع على كل هذه المعاني يرى توافقها مع ما أشار إليه العلامة محمد باي بلعالم بقوله: (الطاهري، 2010م، ص103)

كدير أو صومعة في المبنى	أما الزوايا فهي ركن يبنى
ينمى لها خص بالأولياء	وفي شمال القارة السمراء
مدرسة وغرف لها تبع	وقيل اسم لبناء قد جمع
وهي للضيوف أيضا مأوى.	فيجد الطالب فيها مأوى

هذا عن الزاوية، أما فيما يخصّ الرّباط فقد اختلف في تعريفه وفقا لعدة معطيات أهمّها ما جاء في دائرة المعارف الإسلامية بأنّه: "زاوية إسلامية محصّنة"، وإلى نفس المفهوم ذهب الأستاذ م. بن حمو حينما قال: "فلما زالت من هذه الأربطة صفتها الحربية صارت بيوتا للعبادة" (بن حمو، 2018، ص98)، حيث ارتبطت

حسب التعريفين الأخيرين الزوايا والأربطة بنفس المفهوم فلم يفرّق بينهما إلّا بكون هذه الأخيرة ذات صبغة عسكرية محضة.

فصل الأستاذ عاصم محمد رزق بمعجمه في أصل الرباط وماهيته قائلاً: "الرباط هو نوع من الثكنات أو الأبنية العسكرية التي كان يربط فيها المجاهدون على حدود الدولة وثغورها لحمايتها من الأعداء، وقد اعتادت الدولة الإسلامية إنشاء هذه الأربطة على حدودها وثغورها ليكون كل منها بمثابة حصن و برج مراقبة واتصال ومنارة ومحطة بريد ترسل منها الأخبار العاجلة والإنذارات الآتية إلى حاضرة الخلافة في حالة تعرض الدولة للخطر، فإن كان ذلك ليلاً أوقدت منارة الرباط لتصل الأخبار عبر الحراقات على طول الطريق إلى العاصمة، وإن كان بالنهار استبدلت النار بالدخان" (رزق، 2000، ص115)، كما عرّف أيضاً بأنّه: "مركز حربي وثقافي معاً، حربي حسب بنائه الذي يشبه القلعة المحصنة، وثقافي حسب تعليم المقيمين المرابطين للثقافة الإسلامية والمعارف الدينية."، (عزوق، 2014، ص16) ووصف جورج مارسيه الزوايا بأنّها عبارة عن أربطة فقدت وظيفتها العسكرية. (Marcais, 1954, p284)

اتفق العديد من الباحثين على أنّ للزوايا بالجزائر عدّة أنواع (نسيب، 2010، ص103)، ولعلّ أهمّ هذه الأقسام نجد:

- زوايا المشايخ: تتميز بنظامها الوراثي وتبعيتها لطريقة صوفية ما، يشرف عليها الشيخ وهو المسؤول المباشر عليها، تكثر بالجزائر ومن أمثلتها الزاوية القاسمية في الهامل ببوسعادة وزاوية ابن سحنون ببجاية.

- زوايا المرابطين: تتميز بطريقة تسير جماعية لأحفاد المرابط المؤسس، وعدم تبعيتها لأي من الطّرق المعروفة، ومن أمثلتها في الجزائر نذكر زاوية سيدي بهلول بالشرفاء بتيزي وزو المؤسسة من طرف سيدي أحمد بن عاصم في القرن السابع الهجري.

• زوايا الطلبة: يتمتع فيها الطلبة بالاستقلال التام في التسيير، ومن نماذجها زاوية سيدي عبد الرحمان اليلولي.

3.2. نشأة وتطور عمارة الزوايا والأربطة:

يطول الحديث عن نشأة وتطور عمارة الزوايا والأربطة بالعالم الإسلامي فالرباط والرابطة والزاوية منشآت ارتبطت بذكر الأولياء والمتصوفة وإن كان ظهور الزاوية قد تأخر مقارنة بالرباط والرابطة إذ لم تظهر إلا بعدهما، حيث كانت نتيجة حتمية للفتوح الإسلامية لمختلف الأقطار إذ اعتبرت وسائل للدفاع عن السواحل والثغور، ولعلّ أول أمرها في التنظيم العسكري الإسلامي راجع إلى الاحتكاك الواقع بين المسلمين وبين الفرس والبيزنطيين، ذكر البلاذري أنّ معاوية كتب إلى الخليفة عمر بن الخطاب -رضي الله عنهما- يصف إليه السواحل فردّ عليه بإصلاح حصونها وإقامة الحرس على مناظرها واتخاذ المواقف لها (البلاذري، 1978، ج 05، ص 152)، ويرى التدمري أنّ أوائل الرباطات في زمن الخليفة عمر -رضي الله عنه- تمثّل في رباط بيروت الذي رابط به كل من أبي الدرداء عويمر الأنصاري وسلمان الفارسي وعبد الملك بن أبي ذر الغفاري-رضوان الله عليهم جميعا-. (التدمري، 1970، ص 70)

أمّا في مصر فقد قسّم عمرو بن العاص -رضي الله عنه- جيشه على رباطين أحدهما في الفسطاط والآخر في الإسكندرية، ولا شك أنّ الأعمال الثغرية في بلاد المشرق قد تواصلت وربما بشكل مختلف عن نظيرتها في الغرب.

ففي هذا الأخير وبعد بناء عقبة للقيروان تمّ اتّخاذها مكانا لانطلاق الجيوش الإسلامية، فاعتبرت على إثر ذلك قصور طرابلس الغرب فجر حركة الرباط والمرابطة في بلاد المغرب.

ولا شكّ في أنّ رباط المنستير الذي أسّسه والي العبّاسيين بالمغرب هرثمة بن أعين سنة 179هـ/796م أقدم مؤسسة حربية ودينية قبل أن يؤسس الأغالبة بعد أقل من 10 سنوات من ذلك رباط سوسة. (سالم، 1981، ص 449)

وابتني يعلى بن مصلين الرجراجي رباط شاکر -سيدي شاکر أو شيكر كما يسميه المغاربة اليوم- في حربه مع برغواطة، وإضافة لهذا الأخير فقد استخلص جورج مارسيه من مطالعته لأهم المصادر التاريخية عدة أربطة أخرى كرباط نكور وسلا وفاس والرباط الداخلي بالمغرب الأقصى، وأربطة شرشال وأرزو ووهران وأبي مروان في بونة بالمغرب الأوسط.

ومع مرور الوقت فقدت أغلب الأربطة وظيفتها العسكرية واتّصفت بطابع المراقبة والجهاد المرتبطين بالتّكشف والزهد، على أن تأخذ تسمية جديدة هي الزّاوية التي لم ترتبط بالصّبغة الصوفية ولم تعتبر مركزا دينيا وعلميا إلا بعد فقدان الأربطة والرباطات لدورها العسكري.

كان السبق كالعادة في تأسيس الزّوايا للمشرق الإسلامي حيث ابتنى الخلفاء الراشدين ثم من بعدهم حكام بني أمية وبني العباس بيوتا ملحقة بالمساجد للمعتكفين والعباد والمنقطعين، ثم ما فتأت أن ظهرت أبنية على أطراف المدن كمصليات بدون محراب لها نفس الوظيفة تقريبا، قبل أن تنتشر هذه الأبنية بالغرب الإسلامي.

بالمغرب الأوسط بالذات نشأ نظام الزوايا بعد القرن الخامس الهجري، فسميت أولا بدار الكرامة مثل تلك التي بناها الخليفة الموحّدي أبو يعقوب المنصور سنة 591هـ، وفي اعتقادنا فإن أقدم زاويتين علميتين تلك التي أسّسهما الشيخان سعادة الرّياحي بطولقة في القرن السادس الهجري وأبي زكرياء يحي الزواوي (ت611هـ) ببجاية إذا أخذنا بما ذكره صاحب عنوان الدراية (الغبريني، 1981، ص118) وبعدها زاوية أبي الفضل ببجاية. (العامري، 2006، ص118)

اختلفت عناصر ومقومات الزّوايا وهو الأمر الذي تفتّح له الأستاذ نللي سلامة العامري (العامري، 2006، ص118) حيث قارن بين زاويتا بجاية سالفتا الذّكر مبرزاً اختلاف نمطيهما دون الاستناد إلى الفارق الزمني بينهما فأعطى الجدول التالي:

جدول رقم 01: المقارنة بين أقدم زاويتين ببجاية

النمط أ:	النمط ب:
زاوية الزواوي - الزيات-	زاوية أبي الفضل - المراسي-
مقر خاص لسكن الولي.	مقر لسكن الولي وفقرائه معا.
لم تستقلّ كلياً عن رحم الجامع بل ترتبط به ضمن مجمّع معماري وتستغلّ كجزء من الدار.	فضاء معماري مستقل تماماً بمدخل خاص بها.
أهل " الولي " وعائلته هم من يقومون بخدمته.	الفقراء والمريدون هم من يتولّون خدمة الشيخ.
تستغلّ الزاوية كخلوة للولي.	توجّه الزاوية نحو التربية والتعليم والإطعام.

المصدر: نقلا عن نللي سلامة العامري (العامري، 2006،

ص120)

3. المدارس:

تعتبر المدارس أحد مراكز العلم والتعليم التي أخذت مكانها ضمن النظم العمرانية الإسلامية الداعية إلى تطوير الإنسان المسلم وفقا لتعاليم الشريعة الإسلامية، وهذا انطلاقا من مستل القرن الخامس الهجري.

1.3. الضبط اللغوي:

ينطلق تعريفها اللغوي من المصدر الثلاثي دَرَسَ، إذ يرى ابن منظور أنّه تأخذ معنى درس الكتاب يدرسه درسا ودراسة أي قرأته وكرّته للتمكّن منه، والمدرس بفتح الميم هو الموضوع الذي يدرس فيه جمع مدارس، والمدرسة مكان الدرس والتعليم.

2.3. التعريف الاصطلاحي:

أمّا من الجانب الاصطلاحي فأخذت المدارس عدّة تعريفات لعلّ أهمّها ما افترضه الأستاذ غالب عبد الرّحيم في أنّ المدرسة مبنى ديني لا مئذنة له ولا منبر، (غالب، 1988، ص71)

ولعلّ الأمر الذي جعله يكتفي بالافتراض بدل التّرجيح راجع إلى كون العديد من المدارس خلال مختلف الفترات الإسلامية قد احتوت على هاذين العنصرين بالذات كالمدرسة النورية الكبرى والمدارس المملوكية كمدرستي السلطان قلاوون والسلطان برقوق بالقاهرة التي احتوت على كلا العنصرين بالمشرق، بينما احتوت بعض مدارس المغرب الإسلامي على المئذنة كمدرستي العباد بتلمسان والصّفاين بفاس في المغرب رغم أن مئذنة مدرسة العباد في الأصل هي مئذنة مسجد سيدي بومدين المجاور لها، وأعدّت المدرسة للتّدرّس والتّعليم الخاص بمختلف العلوم فلهذا السّبب ولكثرة رواد العلم وارتيادهم على المساجد فصل التّعليم عن المسجد وتم إنشاء المدارس لهذا الغرض، بينما يكمن الفرق بين الكتّاب والمدرسة في كون هذه الأخيرة عبارة عن بنيان خيري يختصّ بالتّعليم العالي مقارنة بالكتّاب والمسجد (سعد الدين، 1995، ص12)، وعرفت المدارس أولاً بالنّظاميات نسبة إلى الوزير السلجوقي نظام الملك الذي تعود إليه فكرة إنشاء المدرسة وفصل التّعليم بها عن المسجد.

فيما بعد اشتركت عدّة مصطلحات ترجع لمنشآت معمارية لها نفس المعنى ولعلّ الدّاعي إلى ذلك هو اشتراكها -ولو تصوّريا- في الوظيفة كالكتّاب والمدرسة والزّاوية والمدرسة القرآنية، وإن كان تعريف الزّاوية والمدرسة قد سبق ذكرهما فإنّ المدرسة القرآنية هي التي تعني بتحفيظ القرآن الكريم والآداب الإسلامية والمبادئ الأساسية للتّعليم، أمّا سعد الله فيرى أنّها تقوم بتعليم وتحفيظ القرآن وتعليم القراءة والكتابة والرّسم القرآني إلى جانب التّربية الدّينية كالعقائد وحفظ بعض الأحاديث (سعد الله، 1990، ص49)، في حين أنّ الكتّاب فأبسط وأشمل تعريف له هو ما

وضعه الأستاذ ر. تركي بأنه يقع غالبا في حجرة أو حجرتين فتحت إحداها على الأخرى يقوم فيه التعليم على الطريقة التقليدية المعروفة (تركي، 1976، ص 236)

3.3. نشأة وتطور عمارة المدارس:

يجزئنا الحديث عن تعريف المدارس وتبسيط مصطلحها إلى الكلام عن نشأتها وتطورها في الإسلام، فمن الباحثين المسلمين من يرى أنّ تخصيص المدرسة كمعاهد للتعليم من مستحدثات الإسلام (إسكندري، 1989، ص 145) والتي لم تكن قبله (قمبر، 1985، ص 22)، وقد أشار إلى هذا الرأي كل من الأستاذ محمود قمبر ومحمد إسكندري وحسن جبر وإبراهيم أحمد العدوي مرفقين هذه الفكرة بعدد كبير من الدلائل والبراهين والشواهد المادية والتاريخية والأدبية (العدوي، 1998، ص 09).

ولا شك في أنّ ظهور المدارس متأخر زمنيا عن ظهور المساجد، بل تعتبر هذه الأخيرة مصدر تفرع المدرسة كما أشار إليه الأستاذ ب. بلجوزي فالمسجد هو الأصل الحضاري للمدرسة (بلجوزي، 2018، ص 193)، ولعلّ دار الأرقم بن أبي الأرقم هي أول ما يمكن الإشارة إليه في مسألة نشأة المدارس في الإسلام إذ تعتبر أول مركز علم فيه الرسول -صلى الله عليه وسلم- أصحابه.

بدأ تأسيس المدارس في المشرق الإسلامي مع أواخر القرن الرابع مستهلّ القرن الخامس الهجريين حسبما اتفق عليه جلّ الباحثين في موضوع نشأة المدارس في الإسلام، ففي هذا الشأن اتفق أغلب أعلام الشافعية كالسيوطي والسبكي والمقريزي وغيرهم على أنّ مصطلح المدرسة قد شاع في العالم الإسلامي بعد إنشاء المدرستين النظاميتين الأولى بنيسابور أقامها نظام الملك للإمام الجويني سنة 448هـ/1056م والثانية ببغداد سنة 459هـ/1064م (محبوبة، 1999، ص 379).

ولكن هذا لا يجزم بعدم وجود مدارس قبل هذه فالسبكي في حدّ ذاته قال وبصرح العبارة "كانت المدرسة البيهقية بنيسابور قبل أن يُولد نظام الملك والمدرسة السعدية بنيسابور أيضا بناها الأمير نصر بن سبكتكين أخو السلطان محمود لما كان واليا بنيسابور ومدرسة ثالثة بنيسابور بناها أبو سعد إسماعيل

بن علی بن المثنی الإستریاذی الواعظ الصوفي شیخ الخطیب ومدرسة رابعة بنیسابور أيضا. " (محبوبة، 1999، ص314) وراح إلى ذلك المقریزی حینما قال: "المدارس مما حدث فی الإسلام وإنما حدث عملها بعد الأربع مائة من الهجرة، أول من حفظ عنه أنه بنا مدرسة فی الإسلام أهل نیسابور..."

بینما فی الغرب الإسلامی فقد تأخر ظهور المدارس إلى القرن السابع الهجری فی عهد بنی حفص كما أشار إلى ذلك ألفرد بال مفتدا ما راح إلیه ابن أبی زرع حین أشار إلى أن الخلیفة الموحّدی أبو یوسف المنصور الذی حکم بین 580-595هـ/1184-1199م هو من أنشأ المدارس، بل یرى ألفرد بال أن تلك التي أسسها المنصور الموحّدی ما هي إلا دور للحديث وأنّ أول ظهور للمدارس كان عند الحفصیین بداية من القرن 15م ثم ظهرت بمملکتی فاس وتلمسان (بل، 1987، ص308).

أسست أول مدرسة بطرابلس الغرب ما بین سنتی 635-655هـ/127-1257م وشيّدت مدرسة بمراكش سنة 658هـ/1260م، كما أنشأ أبو الحسن المرینی المشهور عنه كثرة بنائه للمدارس أولى مدارسه بفاس فی حدود 670هـ/1271م المسماة بمدرسة الحلفائیین أو الصّفاریین، ورغم هذا إلا أنّ بعض الإشارات بعدد من المصادر تؤدّي بنا إلى تأویل آخر لهذه المدارس وظهورها ببلاد المغرب، کیف لا وقد ذکر لنا مثلا ابن فرحون فی الدیباچ المذهب وجود مدرسة فی العهد المرابطی حین أشار إلى أنّ "عبد المومن بن علی قتل طلبة هذه المدرسة-یقصد مدرسة المرابطین- وفقهاءها"، كما یدکر استقرار الفقیه أبی علی ابن سكرة الصّدي (ت514هـ/1120م) بمدرسة مرسية خلال حکم الموحّدين لها. (المالکی، د ت، ج01، ص331).

أما فی المغرب الأوسط -الجزائر- فإذا رجعنا للمصادر فقد ذكرت مدارس كثيرة لم يعد لها وجود، إذ ذکر کلّ من النّمیری وابن مروزق إنشاء أبی الحسن المرینی لمدرسة بالجزائر، وأشار کلّ من ابن صعد وابن مریم علی التّوالی إلى مدرستی الشیخ إبراهیم التّازي بوهراّن ومدرسة منشر الجلد بتلمسان.

4. خاتمة:

تبقى المدارس والزوايا أهم المنشآت المعمارية تأثيرا وتأثرا في مجال نشر العلم والمعرفة منذ بداية ظهورهما إلى يومنا هذا، لذا نجد بأن انتشارهما كان واسعا. لم تخلو مختلف التجمعات السكنية من وجود المدارس والزوايا بها، وإن كان النوع الثاني منتشرا سواء ضمن المجالات الحضرية أو الريفية، فإن النوع الأول كان وجوده مقتصرًا على المدن تقريبا وعوّضه في الريف الكتاتيب. لم تختلف التصميمات المعمارية للمدارس بالعالم الإسلامي عامة والجزائر خاصة على مرّ الفترات التاريخية وعلى اختلاف السلالات الحاكمة، فنجد أنّ أكثر تخطيط منتشر هو ذاك القائم على انفتاح غرف التدريس والإيواء على الصحن إضافة إلى وجود غرفة الشيخ والمصلى -أو المسجد- والمطبخ والميضاة. برزت الزوايا في كل الأقطار الإسلامية فهي الخانقاه والتكية بالشرق والزوايا بالغرب الإسلامي، وهي منتشرة بكثرة ممّا يجعل توحيدها على نظام معماري واحد غير وارد، إلّا أنّ أهم ما يميزها هي وجود قاعة كبيرة للتدريس وقد تكون هي نفسها المخصصة للصلاة وزيادة على ضريح المؤسس والمطبخ والميضاة.

**

5. المصادر والمراجع:

1. Marcais, M. (1954). *L'Architecture Musulman d'occident*. Paris .
2. إسكندري، م. (1989). المدرسة والدولة في العصرين الفاطمي والأيوبي. مجلة الاجتهاد، (04).
3. الألوسي، ش. أ. (1985). روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني. بيروت: دار إحياء التراث.
4. البلاذري، أ. أ. (1978). فتوح البلدان. ر. م. رضوان (Éd.). بيروت: دار الكتب العلمية.
5. التدمري، ع. أ. (1970). الرباط والمرابطون. طرابلس الشرق: مطابع دار البلاد.
6. الرازي، ف. أ. (1992). مختار الصحاح. الجزائر: دار الهدى للطباعة.
7. الطاهري، م. (2010). م. (تسليم النفحات من أخبار توات ومن بها من الصالحين والعلماء والثققات. بشار: دار المسكات.
8. العامري، ن. س. (2006). الولاية والمجتمع. بيروت: دار الفرابي.
9. العدوي، إ. أ. (1998). التعليم الإسلامي بين الأصالة والتجديد. القاهرة: حويلات كلية دار العلوم بالمطبعة الجامعية.

البدایات المبكرة للعمائر الدينية التعليمية بالعالم الإسلامي والجزائر / د. إبراهيم مجاهدي (الجزائر)

10. الغالي، ب. ل. (2009). الزوايا في الغرب الجزائري: دراسة أنثروبولوجية. أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في الأنثروبولوجيا، تلمسان، كلية الآداب والعلوم الاجتماعية والإنسانية: جامعة أبي بكر بلقايد.
11. الغبريني، أ. أ. (1981). عنوان الدراية فيمن عرف من علماء المائة السابعة ببجاية. ر. بونار (Éd.), الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
12. المالكي، أ. ف. د. ت. (الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب). م. أ. التور (Éd.), القاهرة: دار التراث.
13. بحيدي ومحمد، ح. و. (2000). الزوايا ودورها في حفظ المخطوطات. وهران: منشورات كلية العلوم الإنسانية، جامعة وهران.
14. بل، أ. (1987). الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم. (Éd. 03). ع. أ. بدوي، Trad. بيروت: دار الغرب الإسلامي.
15. بلجوزي، ب. أ. (2018). المدارس التعليمية في عهد الباي محمد الكبير: دراسة تاريخية أثرية. مجلة القرطاس، 193، (02)، 04.
16. بن حمو، م. (2018). الحصون والمحارس بضواحي تلمسان: دراسة إحصائية لبعض النماذج. مجلة منبر التراث الأثري، 90-101، (06).
17. تركي، ر. (1976). التعليم القومي والشخصية الوطنية. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
18. حجي، م. (1988). الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي. فاس: مطبعة النجاح الجديدة.
19. رزق، م. ع. (2000). معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية. القاهرة: مطبعة مدبولي.
20. سالم، ع. أ. (1981). المغرب الكبير: العصر الإسلامي دراسة تاريخية وعمرانية وأثرية. بيروت: دار النهضة العربية.
21. سعد الدين، م. م. (1995). المدارس الإسلامية في العصور الوسطى. بيروت: المكتبة العصرية.
22. سعد الله، أ. أ. (1990). أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ط3. لبنان: دار الغرب الإسلامي.
23. عزوق، ع. أ. (2014). زوايا ومدارس الجزائر: دراسة أثرية معمارية فنية. وهران: مركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية.
24. غالب، ع. أ. (1988). موسوعة العمارة الإسلامية. بيروت: بروس برس.
25. قمبر، م. (1985). دراسات تراثية في التربية الإسلامية. الدوحة: دار الثقافة.
26. محبوبة، ع. أ. (1999). نظام الملك الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي (408-485هـ): كبير الوزراء في الأمة الإسلامية دراسة تاريخية في سيرته وأهم أعماله خلال استوزاره. القاهرة: الدار المصرية اللبنانية.
27. مصباحي، ع. أ. (2012). خطاب الزوايا في الجزائر: الزاوية التجانية نموذجًا دراسة تداولية. أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في الأنثروبولوجيا، عنابة: جامعة باجي مختار.
28. نسيب، م. (2010). زوايا العلم والقرآن بالجزائر. الجزائر: دار الفكر.